المحاضرة الرابعة: الطوبونيميا والأبحاث الأركيولوجية

1) المظاهر الطوبونيمية بين المغرب والأندلس وفق الأبحاث الأركيولوجية:

نجد في الغرب الإسلامي العديد من أسماء الأعلام الجغرافية ذات الصلة بالماء كالعيون والمجاري المائية ،الأودية والآبار وتقنيات السقي و والري وغيرها فمثلا بقصبة الحمراء بغرناطة النصرية بالأندلس عثر على آثار "جب الملك" المعروف بالجب القديم نسبة إلى أحد ملوك بني الأحمر، كما أن أحد الأنهار قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس ،ومن كثرة جر الماء منه للمدن عرف بـ"وادي السقائين"، كما سميت مدريد الإسلامية بمجريط ؛ وهو لفظ مركب من كلمة "مجرى" ومن النهاية الدارجة "يط" التي تدل على التكثير ليصبح المعنى التقريبي لمدريد هو المدينة ذات المجاري المائية وغيرها من الأمثلة كما نجد "حور مؤمل" وهو اسم منتزه بغرناطة سمي بذلك نسبة إلى مؤمل وهو أحد رجال دولة باديس بن حبوس الصنهاجي الملقب بالمظفر، وقد حكم غرناطة عقب الفتنة البربرية من 428 إلى 467 ه / 1037 إلى 1074 م.

إن أهمية الماء في الفكر المغربي الأندلسي تعدى المنحى الطبيعي المشار إليه في أسماء بعض الأعلام الجغرافية، إلى أثر ممثلا في أسماء المدن، فإسم "رية" باللاتينية هي الاسم القديم لمدينة "مالقة" تعني سلطانة فهي بلاد سلطانة البلاد وطليطلة تأويل اسمها أنت فارح.

2)التواصل الطبونيمي بين بلاد المغرب والأندلس:

تأتي أسماء المواقع شاهد على التواصل الطوبونيمي في المغرب عبر الزمان والمكان، ويكفي أن نفتح أي كتاب في المسالك والرحلة حيث نتأكد من ذلك ونفسر تلك الأسماء المشتركة الموجودة بأقطار المغرب في بعض الحالات بانتمائها إلى القبلية وفي بعض الأحيان بوحدة اللسان واللغة؛ ومثالا على ذلك فأن قبيلة مكناسة البترية كان مجالها في القرن 2ه/ 8م، على واد ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر وما بين ذلك من نواحي تازة وتسول" ثم زاد امتداد القبلية وانتشارها، فذكرها اليعقوبي بناحية تلمسان ونقاوس بالحضنة وبسكرة بالزاب، وبعد أقل من قرنين من الزمن كانت حسب البكري من القبائل المجاورة لوجدة وفاس، كما سكن بطن منها جبل الونشريس، فيما أسس آخر مدينة تاقرارت أثناء الحكم الصنهاجي وأخذت اسم القبلة فتسمت بمكناس أو مكناسة الزيتون حسب كتاب الاستبصار وخلاصة القول قد تبين انتشار الاسم في أكثر من موقع، وتحوله من اسم لقبيلة إلى طوبونيميا المدينة.

لم يقتصر الإرث الطوبونيمي الأمازيغي على منطقة المغرب كما سبق الإشارة إليه فقد انتشر بالضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط وبالضبط في بلاد الأندلس التي لازالت العديد من قراها تحتفظ بأسماء أمازيغية ، ففي منطقة الثغر الأعلى أثبت الباحث الفرنسي فيليب سيناك "Sénac Philippe"وجود مجموعة من الأسماء الأمازيغية من خلال الأبحاث الأثرية التي قام بها بنواحي كل من سرقسطة وهويسكة "Huesca"" ، ففي ناحية سرقسطة لازالت بلدة تحمل اسم ميكيننسة "Mequinenza " مما يدل على إستقرار فرع من قبيلة مكناسة الزناتية بالثغر الأعلى، ويؤكد ذلك صحة الروايات التاريخية التي تأكد أن هذه القبيلة قد انقسمت إلى ثلاث فروع : الفرع الأول الذي أسس مكناسة الزيتون، والفرع الثاني استقر بناحية تازة، أما الفرع الثالث فقد هاجر إلى الثغر الأعلى بالأندلس.

أما في ناحية هويسكة فقد كان هناك حضور لاسم زناتة الذي مازال مترسخا في الذاكرة الجماعية للسكان وهذا دليل قاطع على مدى تأثير هذه القبيلة في ثقافة ونمط عيش منطقة الثغر الأعلى،إلى جانب هذه الأسماء الأمازيغية فإن مجموعة من البلدات والحصون الإسلامية بمنطقة ليريدة "lérida " بالثغر الأعلى لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية كالبلدة (Albelda) القليعة (Alcolea)قلعة زنج (Calasanz)ومنزل قريش((Masalcorreig، ولعل وجود هذه الرواسب السنية والبقايا الطوبونيمية بهذه المنطقة لمؤشر واضح على وجود قواعد حربية أمامية للمسلمين بشمال الأندلس للفصل بين الأراضي التي كانت خاضعة لهم ولسلطة النصاري بالأندلس.

أما في شرق الأندلس فقد أكد الباحث الفرنسي بيير غيشارد (Pierre Guichard)على استمرار الطوبونيميا الأمازيغية في مجموعة من القرى والأماكن، فمثلا اسم قبيلة صنهاجة تردد بعدة صيغ مختلفة بمنطقتي بلنسية والقنط alcinhegin, Seneja,Senija,Ceneja-Alicante-) ""الصناهجيين)، كما أكد نفس الباحث على الحضور القوي لقبلية زواوة بناحيتي بلنسية وكاستيون" Acequia, zubeba, Zuveva " ، كما عثر نفس الباحث على العديد من الأسماء التي تثبت استقرار قبيلة زناتة بهاتين المنطقتين الأندلسيتين Atzenata,Atzaneta,Atzeneta، ووجد أيضا ساقية بناحية بلنسية تحمل اسم Acequia" "de Favaraأي ساقية هوارة وقد اعتمد بيير غيشارد على تحليل تاريخي فيلولوجي قويم ومنهجي ليصل إلى أن Favara هو الاسم الذي احتفظت به الذاكرة الجماعية الأندلسية لنعت قبيلة هوارة.

ومما يؤكد هذا الطرح هو وجود أسماء لبعض فروع هذه القبيلة في طوبونيميا شرق الأندلس مثل مكلاتة (Micleta) ومليلة (Melila) كما أن المصادر التاريخية الوسيطة تؤكد هذه المعطيات وتثبت هجرة مجموعة من القبائل الأمازيغية كمديونة وزواوة وهوارة (مليلة، مكلاتة، مسلاتة) وزناتة وصنهاجة وهسكورة من المغرب الإسلامي إلى منطقة شرق الأندلس (مرسيه، شاطبة، بلنسية) خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي للأندلس إلى غاية العصر الموحدي.

لقد كان هذا الوجود الأمازيغي أثر كبير على الثقافة الأندلسية وهذا ما أكدته الدراسة الأثرية التي قامت بها الباحثة الفرنسية ماري كريستين دوليك (Mais Christine dolique) على بعض الأواني الخزفية التي عثر عليها في بعض المواقع الأركيولوجية بمنطقة بلنسية ، فقد أثبتت هذه الباحثة وجود العديد من التأثيرات الأمازيغية في طريقة زخرفة الأواني والمتمثلة أساسا في طريقة التزيين بالصباغة وفي الهيمنة الكبيرة لأشكال الهندسية وهذا النوع من الزخرفة يتميز بوجود تركيبات هندسية متعددة كالخطوط الأفقية أو العمودية المتوازية والخطوط المائلة المتوازية وشبكة المعينات فيما بينها وشبكة الدوائر.

كما تتسم هذه الزخرفة بتغييب كلي للكتابة وللعناصر النباتية والحيوانية، ويغلب عليها تنظيم هندسي محكم يعتمد على تماثل الأشكال كأساس له وهي تحاكي إلى حد كبير الزخرفة المصبوغة التي كانت تستعمل لتزيين الأواني الخزفية الأمازيغية في العصور الممهدة للتاريخ ولعل دراسة عينات من هذه الأواني الخزفية في المختبرات الخاصة بالخزف لكفيل بإنارة مجموعة من الجوانب المعتمدة من الثقافة المادية لأندلس وللضفة الجنوبية من البحر الأبيض

المتوسط كما يمكن تدعيم وتتميم المعطيات المختبرية بأبحاث إثنوغرافية لتعميق وإثراء معرفتنا الخاصة بطرق ومناهج صنع وزخرفة الخزف التقليدي .